أحمد الزين «الانسان»

للأستاذ عبد الفتاح البارودي

فى ٥ نوفبر من العام الماضى روعت الدوائر الأدبية بفقد الشاعر العالم الراوية (أحمد الزين) . وما أظن أحداً من عشاق الأدب يجهل قيمته الأدبية ؛ ويكفى أن نقول إنه شارح وضابط ومصحح العقد الفريد ، وإمتاع الأسماع ، ونهاية الأرب وما إليها من أمهات الكتب بمفرده حيناً وبالاشتراك مع آخرين من الفضلاء أحياناً . كذلك يكفى أن نقول إنه كان فى مقدمة « الرواة » فى العصر الحديث ، بل ربما يكون قد انتهى بموته عهد « الرواية الأدبية » ...

ومع هذا فلست أريد فى هذا الحديث أن أتكلم عن أدبه مرجئاً ذلك لفرصة أخرى ؛ وإنما أريد أن أحاول تصوير بعض ملامح شخصيته الطريفة النادرة تصويراً سريعاً قبل أن تغمرها موجة النسيان ؛ فقد كان الفقيد نموذجاً فريداً فى الحياة من طراز خاص وأسلوب خاص ومزاج خاص منقطع النظير .

الزين الظريف :

كان رحمه الله ظريفاً إلى أقصى حدود الظرف فى كل حركاته وسكناته . وقد تجلى ذلك فى معظم منظوماته حتى فى المراثى ! ! ولا زلت أذكر يوم اشترك فى تأبين شاعر النيل (حافظ إبراهيم) بقصيدة مطلعها :

أفى كل حين وقفة إثر ذاهب   وصوغ دم أقضى به حق صاحب
أودع صحبى واحداً بعد واحد   فأفقد قلبى جانباً بعد جانب

وبالرغم من هذه البداءة الحزينة التى لاءمت المناسبة الحزينة فإن ظرفه سرعان ما غلب عليه ونقله من الحزن الخالص إلى التهكم الذى أضحك الحاضرين على من سماهم « المجددين » فقال مقارناً شعر (حافظ) بشعرهم :

فذلك جلال الشعر لاشعر عصبة   يطالعنا تجديدهم بالحواصب
دواوين حسن الطبع موه قبحها   وهل يخدع النقاد نقش الخرائب
فيا ضيعة الأوراق فى غير طائل   ويا طول ما تشكو رفوف المكاتب

كذلك فى قصيدته فى ذكرى (تيمور باشا) غلب عليه ظرفه فنقله أيضاً إلى التهكم على الناقلين عن اللغات الأجنبية بلا فهم لدقائقها ولا تمكن من تفهم الأصيلة بأبيات جاء فيها :

من كل ألكن نابغ فى عيه   لهج بدعوى العلم وهو جهول
ويكاد يرشح عقله أمية   حتى عليه يشكل التشكيل
إن رام شعراً لم يقم ميزانه   ورويه قيد عليه ثقيل
أو رام نثراً عى دون مراده   لفظ يطول وما به معقول
وإذا يترجم كان فى تعقيده   قبر به المعنى البرىء قتيل
لا يجحد الغربى سحر بيانه   لكن سوء النقل عنه يحيل
~~سفراء سوء باعدت ما بيننا   ولربما جلب الشقاء رسول~~

وكان طبيعياً أن يتجلى ظرفه أكثر من هذا فى ألوان الشعر الأخرى حيث تتسع الفرصة للتهكم والسخرية .

أذكر أنه أراد ذات مساء أن يعتذر تليفونياً عن موعد هام واتفق أن ظل التليفون مشغولا بأحد الثقلاء أكثر من نصف ساعة ... إذ ذاك نظم قصيدته (المسرة) التى يقول له فيها :

لجد فى أذنها أو اهزل   وقل ثناء بها وثلبا ...
فلا تراها تسد أذنا   مهما تطل لو قرأت كتباً
وكم ثقيل الحديث لولا   جمودها أو سمته سبا
تكاد مما يطيل فيها   تفر ممن دعا وأبى
فيالها آلة تربى   ذا الجهل بالذوق لو يربى

~~وذات ليلة دعاه أحد أصدقائه لسماع مغن~~ وكان — كالمنتظر — سقيم الصوت ، فنظم بهذه المناسبة أبياته المشهورة التى يقول له فيها :

حمار لا يمل من النهيق   يضيق به التجلد أى ضيق
مغن يجلب السلوى ويفنى   بقايا الشوق فى قلب المشوق
منى الأوتار لو أمست سياطا   يصب بها على الجلد الصفيق
بطانته — حماك الله — رهط   كأن صياحهم جرس الحريق
وكانت ليلة ياليت أنى   دفعت بها لقطاع الطريق
جزى الله المغنى كل خير   عرفت به عدوى من صديقى

إلى غير ذلك من النوادر التى لا حصر لها .

الزين والمجتمع :

كان معظم الناس عنده « خلائق » لا يرتقون عند حسن

ظنه . وكان يقسمهم إلى أقسام عجيبة فى دلالاتها : (بلاوى — حميد الصفات — علامة — سبع) !

فكل (باشكاتب) يجلس فى الأماكن العامة متحلياً بخاتم ثمين وساعة ذهبية وياقة منشاة و (يحشر) نفسه فى الأدب والفن دون دراية فهو « بلاوى » !

وكل (مخلوق) حلو الشمائل وديع الصوت سليم الطوية ولكن لا علاقة له بالأدب فهو « حميد الصفات » !

وكل أديب يعرف من أين تؤكل الكتف فينتسب — بالإلحاح — إلى جريدة كبيرة أو يتقرب — بالزلفى — إلى عظيم أو وزير ويصل من وراء ذلك إلى ما يبتغيه فهو «علامة» !

وكل أديب لا تعدو وظيفته أن تكون من الدرجة السادسة أو أقل فهو « سبع » !

وغرضه من ذلك وصف الأديب بالقدرة على البطش والقناعة مع هذا (بلقمة العيش) ..

ولا غرو فقد كان رحمه الله (سبعاً كبيراً) أى موظفاً باليومية لولا أن أسعفه قرار (الإنصاف) ثم (التنسيق) فرقى فى آخر شهر من حياته إلى الدرجة الخامسة .

الزين والأدباء :

وكانت علاقته بمعظم المحدثين من الأدباء مضطربة لصراحته فى إبداء رأيه فى أدبهم ، بل إنه كان يكره أحياناً أن يستمع إلى شعرهم الذى كان يصفه بقوله :

عناوين كالألغاز حيرت النهى ... وما تحتها معنى يلذ لطالب
هم جددوا الشعر آذوا جماله ... بما ألصقوا فى حسنه من معايب
وكم دافعوا عن مذهب العجز جهدهم ... فما غسلوا أسواء تلك المذاهب
وكم ملأوا بالزهر والنهر شعرهم ... بلا طيب مستاف ولا رى شارب
وكم يذكرون الأيك والطير صادحا ... عليها فلم نسمع سوى صوت ناعب
وكم هاتف بالخلد منهم وشعره ... توفى سقطاً قبل عقد العصائب
وشاك أذاة الحب أطفأ جمره ... بشعر كبرد الثلج جم المثالب
فأقسم لو يبغى وصالا بشعره ... لجانبه من لم يكن بمجانب !!

أما علاقته بشيوخ الأدباء وكهولهم فكانت مشبعة بالصفاء والوفاء لمحض المودة من جهة وتقديراً لأدبهم من جهة أخرى . فمثلا كان يوقر حضرات أعضاء لجنة التأليف (وبخاصة أحمد أمين وأحمد زكى) ... وكان يعشق أسلوب (الزيات) ونظم فى هذا الصدد قصيدة بائية رائعة لم أحفظها مع الأسف ولم تنشرها (الرسالة) حتى لا تتهم بمحاباة رئيس تحريرها فيما أظن[1].

وكان يعجب بطه حسين إعجاباً بالغاً بدا بعضه فى تقريظه لكتاب (مع أبى العلاء فى سجنه) بأبيات بارعة جاء فيها :

يا مؤنس المسجون فى سجنه ... وسلوة المحزون من حزنه
من كنت فى السجن له صاحبا ... فسجنه الجنة فى حسنه
أساء بالعالم ظنا ... ولو أدركته حسن من ظنه
أقسم لو خير فى عينه ... وفيك لاختارك عن عينه !!

إحساس الزين :

وإنى لم أصادف كثيرين فى مثل دقة إحساسه . وبالرغم من تسامحه الملحوظة مع معارفه فقد كان ينفعل وأحياناً ينزوى فى بيته عن الناس جميعاً أياماً بل أسابيع إذا أحس بإهانة صغيرة من أحدهم . وربما كانت دقة إحساسه من أهم أسباب استمرار غبنه لخجله من الشكوى .

أذكر أنه طلب مقابلة أحد الوزراء يوماً ما ليرجوه فى انتشاله مما حاق به من غبن ، فتذكره الوزير كصديق قديم واحتفل به وأخذ يردد له بعض ما يتعلق بماضيهما فآثر (الزين) أن يقصر المقابلة على استعادة الذكريات دون أن يخدش إحساسه برجاء !

الزين المحب !

وعلى كثرة ما باح به لأخصائه من أسراره فإنه لم يبح لأحد بشىء عمن أحبها وإن كان دائم البوح بطهارة حبه وطهارتها . كانت هذه مصدر شعره الغزلى الجيد من نحو (عاود القلب حنينه) و (عللينا بالأمانى) و (ما غناء الراح) . الخ .

والغريب أنه كان كثيراً ما يرتاب فى حبها له ويخشى أن يكون منها ضرباً من الشفقة والمواساة . و(الزين) إذا ارتاب تمادى

(١) أرجو الا يقتطع هذه الفقرة رعاية لحق التاريخ